حياة عاصفة

ما عرفت باطناً ظلمه ظاهره، مثل باطن نجيب الريس، كانت طائفة من الناس يجدون في جانبه خشونة وفي عريكته شدة، ولكنهم لم يعلموا أن وراء هذا كله قلباً مثل قلب الطفل لا أثر فيه لشيء من الخبث والمصانعة، كان رحمه الله يثور ولا ثورة البحر الزاخر، ثم لا يلبث أن يهدأ ولا هدوء النسيم والذين هم على هذا الشكل من الطبائع يحبون حباً لا نكاد نرى وراءه بغضاً ويبغضون بغضاً لا نكاد نرى وراءه حباً، وما كنت لأعرف هذا كله لولا الثلاثون السنة التي قضيتها في صحبته، وإني لأذكر هذه السنين المديدة، وأتلفت ما طوته من ضياء وظلمة ومن ابتسام وعبوس، ومن شباب واكتهال فيغلب عليّ ألم لا أجد إلى الافصاح عنه سبيلاً، ولئن شعرت بشيء من الألم في ذكرى هذا الماضي لأنه جزء من حياتي، من قلبي وروحي فإني لأشعر ببعض اللذة في إحياء هذا الماضي، على ذكر نجيب الريس، والحياة كلها لذة وألم.

لقد صحبته أكثر من ثلاثين سنة، أخلصت له وأخلص لي، صحبته في ميسوره، في خشونته ولينه، في شبابه واكتهاله، وقد تخلل هذه الصحبة يسير من الفتور مرة أو مرتين، ولكنه كان كريم

الجانب، فقد محا هذا الفتور حتى لا يبقى له أثر إنه كان يقول إنه لا يستطيع أن يعيش بلا صداقتي.

من أجل هذه الصداقة الوثيقة أدركتني الحيرة في هذا المقال، فقد ازدحمت عليّ الأفكار فلم أدر كيف أنتهي، لأن نجيب الريس لم يكن صحفياً مثل كل صحفي، وإنما كان نسيج وحده، يكتب غيره فيغمس قلمه في المحبرة ويلقي أفكاره على الورقة، ويكتب نجيب الريس فيغمس قلمه في قلبه ويطرح هذا القلب على الورقة، فلم نجد في مقالاته شبحاً جامداً لا لحم فيه ولا دم، وإنما كنا نجد فيها روحاً هائجة مائجة، كنا نجد في مقالاته تدفق الحس والتهاب الشعور وأجيج العاطفة، وهذا ما حببها إلى النفوس وجعل لها قيمة في الأذهان، وجعل الناس يتحدثون عنها بعد مضي الوقت على كتابتها، فالمقال، الذي كان يكتبه كان يصادف هوى في النفوس فهو ينطق عن يأس الناس ورجائهم، عن حزنهم وفرحهم، عن لذتهم وألمهم، وويل الذين كانوا يقعون في قلم نجيب الريس فكانوا يمشون وعيونهم مفضوضة، وينامون وقلوبهم مضطربة، إنه لا يكتب إلا إذا كانت الفكرة الوطنية مختمرة في ذهنه، تعيش في هذا الذهن كما يعيش صاحبها في روحه وتتغذى بحسه وشعوره وعاطفته كما يتغذى بخبزه ومائه فلا يقذف بها إلا إذا شبعت من روحه ورويت من قلبه، ولهذا كانت تدخل الأرواح وتنفذ إلى القلوب.

كـان القـارئ يجـد في مقالاتـه في بعـض الأحيـان شـيئاً مـن فخـر صاحبهـا واسـتكباره ولكـن هـذا الفخـر لم يكـن عبثـاً، وإذا كنـت لا أريـد الإسـراف في التعبـير فـإني أقتصـر علـى قـولي إن نجيـب الريـس كـان ربيـب السـجون مـن أجـل فكرتـه ولهـذا كـان إذا ثـار علـى أهـل الرجعـة يثـور ثـورة الأعاصـير وإذا أثـار علـى المسـتعمرين يثـور ثـورة البراكين، فكـانت مقالاتـه في هـذا الميـدان أعاصـير تعصـف في اضعـاف السـطور وبراكـين تلتهـب في ثنايـا الألفـاظ.

كـان رحمـه الله جـزءاً مـن هـذا المـاضي الـذي أثقلتـه المصـائب وألحـت عليـه الشـدائد، شـهد نجيـب الريـس نكبـة الوطـن وظلمتـه فكـان إذا صـور هـذه النكبـة ووصـف هـذه الظلمـة يصـل تصويـره ووصفـه إلى أعمـاق القلـوب لأن النـاس في المـاضي كـانوا إلى جنـب الفكـرة الوطنيـة الـتي يعـرب عنهـا نجيـب الريـس، وويـل للذيـن كـانو يخرجـون علـى هـذه الفكـرة فقـد كـانوا يذوقـون مـن قلـم نجيـب الريـس مـالا يذوقونـه مـن نـار ملتهبـة.

وهـب نجيـب الريـس لوطنـه ولإخوانـه ولفكرتـه كـل مـا رزقـه الله، وهـب قلمـاً نـاره مسـعرة، وقلبـاً وداعتـه مثـل وداعـة الطفـل فكـان يـذوب في الدفـاع عـن وطنـه وعـن إخوانـه وعـن حزبـه وعـن فكرتـه وكـان يفنـى في هـذا الدفـاع وأظـن أن أحـق النـاس بالبكـاء عليـه بعـد سنة مضـت علـى وفاتـه إنمـا هـم إخوانـه في الفكـر لأنـه كـان لسـانهم النـاطق، ولم ينطـق بعـد لسـانه لسـان وكـان قلبهـم الخـافق ولم يخفـق بعـد

قلبه قلب، فذهب نجيب الريس وذهبت بذهابه أشياء كثيرة.. إلا أنه لم يذهب رحمه الله إلا بعد أن أحب الحياة حباً جماً، أحب نعيمها وكرمها وسرورها ونوادرها، وأدبها وفكرها حتى أفنى هذا الحب جسمه وأذاب روحه، فكاد يتعب من صناعته التي مارسها ثلاثين سنة أو أكثر وأوشك أن يدركه الإعياء من طول نزاله وفرط نضاله ولما كتب الله له أن يستريح من العناء في ظلال دار لم يملك في الدنيا غيرها، وأن ينعم بجنينته التي فتنته توفاه الله ولكنه لم يمت إلا بعد أن خلف في جزء من تاريخ الوطن اسما ضخماً. هذه عظمته!

شباط ١٩٥٣

في المرآة

تنظر إليه وهو جالس في ديوانه وراء مكتبه الفخم، أو في المقهى ينفخ في نرجيلته فتراه في الحالين معتدل الجلسة هادئاً يجيب على سؤال محدثه بإيجاز، ثم يستقبل من جديد أحلامه وتأملاته التي يناجيها ويحادثها، وهو بين الناس وهو منفرد بأحلامه! ينظر في الفضاء البعيد بعينين بعيدتي الغور، وقد ضم شفتيه فكاد يختفي فمه الصغير الذي لا يتسع للكلمات الضخمة المزدحمة، فلا يخرج منه إلا حديث هادئ رقيق متناسق يملك على المسامع لبه، ونظرات الأستاذ جبري وحديثه هما أظهر مظاهر شخصيته!

أما أدب الأستاذ فلا بد من التفريق فيه، بين الأدب الابداعي، والأدب النقدي، وهذان اللونان قلما يجمعهما أديب، بل القاعدة العامة أن الأديب الناقد كالعقاد أو طه مثلاً، لا يحسن تأليف القطع التي تصور عاطفة من العواطف، أو تصف مشهداً من المشاهد، على العكس من الأديب المبدع، فإنه قد لا يحسن الدراسة والنقد والتحليل، فهل كان الأستاذ موفقاً في دراسته توفيقه في شعره أما أنا فأرى ـ بعد استثناء نظرية الأدب ألهيه؟ ـ أن الأستاذ كان في دراسته مجدداً في الأدب، وإن لهذا اللون من الدراسة الذي شرع به

اثـراً بعيـد المـدى في آدابنـا، الـتي ينقصهـا الدراسـة والتحليـل، وإن الأسـتاذ قـوي الثقـة بنجاحـه في هـذا الأدب النقـدي (أي تـأريخ الأدب) ولذلك أقدم عى اختيار البحـتري موضوعـاً للسـنة الثالثـة مـن الكلية مع أنـه يعلـم حـق العلـم أن المرحلـة الأولى مـن حيـاة البحـتري الـذي تمثل بيئته الأولى وطفولته والـدور التي تكونـت فيـه شـخصيته ــ كـل ذلـك مفقـود، ولكـن الأسـتاذ أقـدم علـى دراسـة البحـتري رغمـاً عـن ذلـك، ورغمـاً عـن أنـه لم يجـرأ واحـد مـن نقادنـا ــ في مصـر أو غيرها ـ على دراسته إلى الآن!

فالأسـتاذ اذن زعيـم المدرسـة الأدبيـة الجديـدة، وأدبـه النقـدي سـيكون منـه فتـح في الأدب العربـي عظيـم، لأنـه سينشـئ مذهبـاً جديداً للدراسة والتحليل، غـير أننـا نـأخذ علـى الأسـتاذ أنـه لم يكـون لنفسه مذهباً خاصاً في النقـد يتبعـه في دراسته كـالمذاهب الـتي كونهـا لأنفسهم كبـار نقـاد فرنسـا، ونـرى للأسـتاذ عـذراً أن أدبنـا لا يـزال إلى الآن أدباً تقليديـاً؟

فـأنت تـرى أن الأسـتاذ قـد وفـق في أدبـه النقـدي إلى مـدىً بعيـد، فهـل كـان موفقـاً في أدبه الابداعـي؟

هـذا مما لا يشك فيه أحـد! وقـد عرفنـا الأسـتاذ شـاعراً مبدعـاً قبـل أن نعرفه دارساً ونـاقداً، ولإعتقادنـا أنـه قلمـا ينجـح الأديـب المبـدع في التحليـل شـككنا طويـلاً يـوم بـدأ يـؤرخ الأدب في نجاحـه حتـى لمسـنا هـذا النجـاح وليـس الأسـتاذ مـن أكـبر شـعرائنا فحسـب، بـل هـو

أعمقهم إحساساً، وأصقلهم لفظاً، وليأخذ القارئ قصيدته في رثاء الحسين وليقارنها بغيرها، إنه إذن يراها، خيرها في صقل ألفاظها، وسبك جملها، وفي إحساس صاحبها بالحادث الذي ينظم فيه، وليست مجموعة ألفاظ في الرثاء والمدح تصلح لكل ميت، وقد سألته عن الظروف التي نظمها فيها، والذكريات التي كانت تجيش بها نفسه فأخبرني أن أول بيت له قاله فيها:

رجعت طرفي إلى الماضي فروعني يوم بجلّق فتاك باهليها

وكان ذلك الحادث الذي ذكره أنه كان في القدس يوم بلغه نبأ إعدام الشهداء، وكان وقع الخبر إليماً عليه فبكى، وراح يتمثل مصرع هؤلاء الكرام وفيهم أصدقاؤه ومعارفه، وإذا بالموسيقى التركية تعزف نشيد الظفر تحت النزل الذي كان فيه؟

هذه هي الذكرى المريرة التي استعادها الأستاذ يوم عمد إلى نظم قصيدته في رثاء الحسين، فكان منها فكرة القصيدة، وكان منها ظهور شخصية الأستاذ واضحة في قصيدته، وعمق إحساسه بالحادث، وقد كاد ينساه لولا تهاويل هذه الذكريات التي يناجيها الأستاذ أبداً، فيستعيد بها هذا الماضي المترع بالآلام والآمال:

أكاد أنسى على الأيام روعته لولا تهاويل من ذكرى أناجيها

ولست الآن في مجال شرح هذه القصيدة وتحليلها، بل عرضت لها ليرى القارئ أن الأستاذ جبري مجدد في شعره كتجديده في دراسته، وإن كان أثر هذا التجديد في الدراسة أعظم وأوضح!

والأستاذ أديب بفطرته ولكن وزارة المعارف كادت تستأثر به، وأعمالها التي يقوم بكثير منها تشغله عن الأدب، ولو هو انفك عنها لاستطاع اختصار هذه السنين التي تلزمه الآن، لتكون المدرسة الأدبية الجديدة تكويناً صحيحاً، لا سيما وأن الأستاذ لا يريد أن يدافع عن مدرسته بسلاح الرد والجدل، ولا بسلاح الهجاء الذي انقضى عهده، وذهب منذ ذهب ابن الرومي ودعبل كما يقولون، بل بسلاح العمل فهو يعمل ويقول للناس هذا عملي فاعلموا أحسن منه...

١٩٢٠

رياض العابد خلق، وعقل

سمعت وأنا في دكان فتياناً من اهل القرية جاوزوا التعليم الابتدائي ودخلوا في التعليم الثانوي يذكرون مرشحاً في قضائهم ويقولون: على أي شيء يعتمدون في ترشيحه، أعلى سيرته الطاهرة، أم على سيرة أهله أم على شهاداته وعلمه.

لم أهتم بهذا المرشح ولا بخصومه وإنما الذي اهتممت به في مثل هذه الأحاديث إنما هو ما يسمونه الوعي العام، فإذا كان فتيان من القرى، من الفلاحين أخذوا يدركون أن النيابة تحتاج إلى سيرة طاهرة وإلى شهادات، أي إلى خلق وعلم، فمعنى هذا أن الناس شرعوا يدركون أن النائب لا ينبغي له أن يكون في المجلس تاجراً يتوخى الربح، ولا جاهلاً لا يفهم جوهر المسائل التي يتوقف عليها صلاح البلاد وفسادها.

كتب أحد أصدقائي من مدة مقالاً في صحيفته ذكر فيه أن الأزمة التي قاستها البلاد في الحكم كانت أزمة أخلاق، فليسمح لي بأن أضيف إلى كلامه أن هذه الأزمة إنما هي أزمة فهم في الوقت نفسه، إن مجلسنا يحتاج إلى نواب على خلق عظيم، وعلى فهم ثاقب، فالأخلاق من دون فهم قد يجوز أن يلعب بها نائب من

شياطين النواب، والافهام من دون خلق قد يجوز أن يجعل أصحابها الوطن صنيعة يستغلونها.

فإذا كان مدار الأمر في النيابة على هاتين الصفتين: العلم والخلق فإنني أرى أن البيانات التي كثرت في هذه الأيام أصبحت موضوع سخرية في المجالس وقد يجوز أن يكون بين أصحابها جماعة لا مطعن عليهم ولكن البيانات لا تقدم ولا تؤخر، وإنما التي تقدم وتؤخر إنما هي عقول أصحابها وأخلاقهم.

وإذا كان المجال لا يتسع للخوض في الكلام على كل المرشحين سواء أصدرت بيانات عنهم أم لم تصدر، فإني لا أرى بداً من أن أعلن شهادتي بأحدهم وهو الأستاذ رياض العابد.

إني أعرفه من زمن غير قريب فقد بلوت كثيراً من ظواهره وبواطنه، وإذا كانت النيابة تستلزم ثاقباً فأنا أشهد له بهذا الفهم فإذا عرض على المجلس أمر فيه صلاح البلاد أو فسادها فإنه يدرك هذا الأمر الإدراك كله، فهو من هذه الناحية صاحب عقل راجح وإذا كانت النيابة تستوجب خلقاً قوياً فإني واثق بأنه لا يجعل البلاد جزءاً من منافعه وإنما يجعل نفسه جزءاً من منافع البلاد، وبعبارة أوضح إنه يذوب في مصلحة الوطن وسمعته واستقلاله وليست شخصيته في هذا المعنى رخوة فإنه حريص عليها، وقد سمعت أحد أصدقائه يقترح عليه أن يدخل في قائمة فلان.. فكان جوابه إني لا أريد أن أكون آلة في يد أحد ولا أريد أن يكون عليّ

لأحد فضل، فأنا قد مهدت للنيابة بنفسي فإما أن أنجح بفضل هذا التمهد أو لا..

والصحيح أنه مهد للنيابة بنفسه من سنين، فقد خدم كثيراً من الناس وعرف قيمة الصداقة وأصبحت للناس به صلة شديدة وإذا خدم إخوانه فإنه لم يخدمهم في الباطل وإنما خدمهم في الحق وإنني أعتقد أقوى الاعتقاد أنه إذا دخل مجلس النواب بعد أيام قريبة فإنه سيحافظ في هذا المجلس على سمعته، سيحافظ على عقله الراجح فلا يصرف هذا العقل في أمور يكون فيها خراب البلاد وسيحافظ على خلقه فلا يجر الوطن لمنافعه وإنما سيذوب بعقله وخلقه في سبيل هذا الوطن.

بلودان ٢٠ أيلول ١٩٥٤

الأيام

مقدمة

نعمت ساعة بقراءة هذه الرباعيات، وقد تختلف آثار القراءة في النفس باختلاف الحالات التي تكون فيها هذه النفس، فقد تكون هذه الآثار بالغة وقد تكون ضعيفة، وهذا كله يرجع إلى حالة القارئ في خلال القراءة.

قد تغلب على الإنسان عقدة من العقد النفسية في حالة من الحالات فيرى في قراءة بعض الشعر أو بعض النثر حلاً لهذه العقدة أو ما يساعد على هذا الحل، ولو قرأ هذا الشعر أو هذا النثر وهو سالم من كل عقدة، خالص من كل ارتباك لكان نظره فيها يختلف عن نظره وهو في ظلمة عقدته.

نعمت ساعة من الزمن بقراءة هذه الرباعيات فتركت في نفسي أثراً لا تتركه لو كنت صافي النفس هادئ البال مجرداً من كل اضطراب بعيداً عن كل ارتباك. ولقد آثرت أن أكتب هذه السطور وأنا في الحالة التي وصفتها حتى يظهر عليها الطبع وحتى يبعد عنها كل تكلف وسواء علي بعد هذا أكنت مخطئاً في الذي كتبت أم كنت مصيباً.

ما هي النغمة الغالبة على الرباعيات؟ إنا إذا قلبنا النظر فيها لا نجد إلا ألفاظ الخمر والكرمة والعناقيد والأكواب والخمارات وما شابه هذه اللغة ومفرداتها، فنحن نعيش في الرباعيات في خمارة من الخمارات، أو في حديقة من الحدائق بين رائحة الخمور وعرف الأزهار فلا يطلع علينا فيها إلا الربيع الطلق الذي يكاد يتكلم، ولا نجالس فيها إلا السكارى الذين لا يكادون يصحون من سكرهم، هذا هو الأفق الذي يتقلب في أعطافه قارئ الرباعيات. ولماذا هذه الأكواب وهذه الخمارات لأن كل شيء في هذه الحياة زائل، كل شيء زائل ما خلا الكرمة وعصيرها. المهم في الحياة إنما هو الشيء الجديد فما ينبغي للإنسان أن يهتم بالكرم وما ينبغي له أن يبالي بالحرب ولا أن يلبي الدعوة البهاء، فالراح وحدها هي كل شيء في هذه الدنيا فهي اللذة وهي الجمال. رغيف من الخبز وكأس من الخمر وديوان من الشعر هذه هي الحياة كلها.

فلسفة واقعة لا فلسفة مبنية على الأوهام والأحلام. فلسفة واقعة لأن البخلاء والمسرفين إنما يصيرون إلى مصير واحد ولا عودة لهم من هذا المصير. فلسفة قائمة على السرور والفرح، على الأوتار والنغم والشراب. فما هي الحياة وما هي قيمتها؟ بل ما هي الفلسفة وما هي قيمتها؟

«أفنى الفلاسفة أعمارهم في التنقيب عن أسرار الكون

فصرعتهم هذه الأسرار وذهبت بأقوالهم وحكمهم

ثـم جـاء ملـك الموت فاسـتل ألسـنتهم

«فغـر القـبر فـاه وابتلعهـم في أحشـائه الدامسـة».

مـا هـي هـذه الحيـاة؟ مـا قيمتهـا مـا قيمـة فلسـفتها؟

هـذه هـي الفلسـفة وهـذا هـو منتهاهـا. أفلـم يصـدق أبـو الطيـب لمـا قـال:

يمـوت راعـي الضـأن فـي جهلـه ميتـة جـالينوس فـي طبـه

أيـن الحقيقـة في هـذه الحيـاة؟ إنهـم يتناقشـون وإنهـم يتنـاظرون ثـم يخرجـون بعـد طـول مناقشـاتهم ومنـاظراتهم مـن البـاب الـذي دخلـوا منـه.

لمـاذا خلـق الإنسـان؟ مـن أيـن جـاء؟ إلى أيـن يذهـب؟ هـذه حقـائق في نظـر الرباعيـات مجهولـة، والحقيقـة الواحـدة المعروفـة هـي الشـرب فاشرب وتمتع مـن الحيـاة، غـداً المـوت! غـداً الـتراب!

ولكـن قلـب صـاحب الرباعيـات عـامر بالإيمـان فهـو يعتمـد علـى الله وحـده، يعتمـد علـى مغفرتـه، إن الله خلـق الإنسـان فهـو الـذي يغفـر لـه ذنوبـه وخطايـاه، هـذه فلسـفة الرباعيـات علـى وجـه مختصـر، الطعـام والعنـب والخمـور والقـبر تحـت ظـلال العنـاقيد والدفـن بـين أوراق الكـروم، هـذه هـي كلهـا عنـاصر هـذه الفلسـفة.

صـاحب الرباعيـات ثـائر علـى كـل شـيء في هـذا الكـون، ثـائر علـى أنظمـه، ثـائر علـى شـرائعه ولكـن ثورتـه بنـاءة لا هدامـة إنـه يريـد أن

يهدم كل شيء في هذا الكون ليبنيه على صورة جديدة، صورة صادرة عن القلب وحده.

هذه خلاصة هذه الرباعيات التي نعمت بقراءتها ساعة من الزمن، إنها لم تشوه تفكيري ولم تعكر قلبي، فأنا لما قرأتها كنت في حالة أستريح فيها إلى مثل هذا الشعر فلم أفكر في (باسكال) ولم أفكر في (الجاحظ) لم أفكر في باسكال الذي كان يؤمن بتسلسل البشرية واطراد آثار عقولها وحكمها وتجاربها وزيادة كل جيل منها في الآثار التي خلفها الجيل قبله ولم أفكر في الجاحظ الذي كان يقول:

«لولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلف كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم وأدركنا مالم نكن ندركه إلا بهم، لقد خس حظنا من الحكمة ولضعف سببنا إلى المعرفة.

لما قرأت هذه الرباعيات لم أفكر في أقوال هذا الرجل العظيم ولا أقوال باسكال وإنما فكرت في الوقت الذي أعيش فيه أو نعيش فيه، فكرت في هذه الحياة القائمة في شرق الأرض وغربها، في تنازع البشر وتنافسهم في اختراع كل ما يفني الإنسان وحضارته، فكرت في تكالب الإنسان على المادة وفي اهتمامه بالمال وجمعه، وفي زهده في كل شيء روحاني، وخرجت من تفكيري هذا

بنتيجة واحدة: ألم يكن صاحب الرباعيات على حق في رباعياته؟ وقد يقول قائل أهذه هي هذه الحياة! أفلا تكون الحياة إلا الكأس والطاس وإلا العنقود والكرم وإلا الخمارة والشرب! إذا قال قائل مثل هذا القول فالحق بيده وإذا أجابه مجيب فقال له: أفلا تكون الحياة إلا التناحر والتنازع والتنافس في أبواب الشرور! إذا أجابه مجيب بمثل هذا القول فأاحق بيده أيضاً.

فلننعم برباعيات الخيام إلى أن ينجلي الحق كل الانجلاء ونعلم أين مكانه.

ولنشكر للسيد نوبل عبد الأحد الذي كلف نفسه نقل هذه الرباعيات من اللغة الإنكليزية فلم يظهر في نقله أثر تعقيد ولا أثر تكلف وإنما هي أفكار منثورة صافية سهلة يدركها الذهن لأول وهلة دون شيء من الجهد.

الوطنية الصامتة

من العذاب الأليم، وأنت في يوم تحتاج فيه إلى التفاف الأهواء والتأليف بين القلوب أن تطلق كلمة «الوطنيين» على جماعة، فتخص بها قوماً ولا تعم آخرين، فكأنك لا تعلم أن الجماعات تنقاد إليك من نواحي عواطفها لا من نواحي عقولها؛ فلو ضربت الناس في الصميم من عواطفهم، وثلمتهم في اللب من مروأتهم، لانفضوا من حولك ونفضوا أيديهم منك؛ وأي ضرب أشد إيجاعاً من أن تخص «بالوطنية» جمهوراً من الناس وتستثني جمهوراً آخرين قد اشتركوا في هذه الوطنية على تباين طبقاتهم ومداركهم ومجهوداتهم؛ أي غمز أشد إيلاماً من أن تسبغ برد الوطنية على طائفة من القوم وتنزع هذا البرد عن طوائف آخرين لهم في «الوطنية» مثل ما لأمثالهم؛ وعليهم فيها مثل ما عليهم، أفلا تجد أنك إذا جعلت «الوطنية» سلعة من السلع يتجر بها التاجرون، مرة يطففون ومرة ينقصون، انشأت لهذه الكلمة الشريفة ضعة في العقول، فلا يصونها الناس بعد أن بالغوا في تبجيلها وتعظيمها؛ ماذا تقول للذين لا تشملهم كلمة «الوطنيين» إذا كان بينهم من باع روحه في سبيل «الوطنية» فأدرع الليل وهرته الشمس وأقرسه

البرد، وهو اليوم لا يملك شروى نقير؛ ماذا نقول لهم إذا كان فيهم من المأت عليه الأرض فشربت دمه فلا تعرف له قبراً، فمتى كانت الوطنية وقفاً على قوم دون قوم، متى كانت الوطنية ديناً خاصاً لا يجوز أن يدخل الناس فيه أفواجاً، أم متى كانت الوطنية مورداً محمي الجوانب ممنوع النواحي، لا يزدحم عليه المزدحمون، ولا يصدر عنه الصادرون، ولعمري لقد حارت العقول، ودهشت الخواطر، فما هي الوطنة التي يدعيها قوم دون آخرين؟ فإذا كانت سراً من الأسرار، فلماذا لا يظهر هذا السر، حتى تدركه العيون فتستضيء بضيائه؛ فما هي الوطنية وما هو مصدرها وموردها؟ وما هو جوهرها وعرضها؟ أم ما هي أوائلها وخواتيمها، أفتليق بجماعة ولا تليق بآخرين، أفتصلح لنفوس دون نفوس، أفتخلق لرجال دون رجال، ماذا تقول لهؤلاء الذين مهدت لهم سبيلاً أن تعرف الوطنية على هذا الوجه.

إن شئت أن تكون وطنياً فلا تعترف بكذا.. أو قل فليسقط كذا.. وما هو إلا رد النفس حتى يقبض عليك القابضون، وإذا أنت في بقعة من الأرض غير بقعتك فلا يأتي عليك إلا حين من الدهر حتى ترجع إلى عقر دارك وأنت الزعيم الجليل، وأنت الوطني الكبير، وأنت رمز الإخلاص، ومحض الوفاء، والحاصل أنت من قريش في الجماهير، هذا هو «تعريف الوطنية» الذي يجري على بعض الألسن إنه لتعريف قاس شديد لا يحب العاقل أن يسمعه،

ولكن الذي فتح باب هذا التعريف، وجعله يستفيض في الطبقات هو أقسى وأشد، إنه لتعريف ظالم، ولكن الذي وطأ السبيل إليه أظلم، إنه لتعرف لا يخلو من شيء من الهزء، ولكن الذي كان السبب فيه أهزأ بالناس وأسخر، ليست الوطنة أن تستعلي وتستكبر، وليست الوطنية أن تقتحم الناس عينك، فكأنك من أفق غير أفق البشر، أم كأنك من أسماء لا تطاولها سماء، ليست الوطنية أن تنشر فضايلك؛ إني لا أرى أبلغ من الوطنية الصامتة ولا أرى أحمد منها عواقب؛ وأحسن خواتيم قد يكون جمود دمعك في بعض الشدايد أنطق من فيضه، وقد يكون سكوتك في بعض المقامات أبلغ من كلامك وكذا الوطنية الصامتة الهادئة فإنها أبلغ من الوطنية المهذارة المجعجعة، ما هذه الرياسات الجليلة، وما هذه الزعامات الكبيرة، شبر من التراب في ظلال ميسلون أجل منها وأكبر، شبر من هذا التراب أنطق من كل وطنية هذاءة. اللهم ارحم نفوساً ذهبت بين سمع الأرض وبصرها. فضرت أصحابها لينتفع غيرها. وقتلت أهلها ليعيش من بعدها. فاشترت موتها بحياة المتكالبين على حطام الدنيا. المتناحرين على سفساف أمورها.

فتى العرب ١٩٢٨

سليم جنبرت

هل يزاحمونه على النيابة؟

إن امارتكم بكر فأذيقوا الناس حلاوتها

أحفظ عبارة ولكنني لا أذكر من قالها ولا في أي حال قيلت: إن امارتكم بكر، فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها.

خطر ببالي هذا الكلام بعد أن سلمت من يومين على سليم بك جنبرت، فقد كان فندق أمية غاصاً بعلية القوم، وفي مقدمتهم رجال الكتلة الوطنية، خرجت من عند سليم بك فبلغني أن بعض الناس يفكرون في مزاحمته على النيابة فاستفظعت الأمر، واستفظعه غيري، إني لا أريد أن أذكر الأسباب التي من أجلها ينظرون في حرمانه شرف النيابة، ولكن الذي أريد أن أوضحه في المقال قليل من خصائص سليم بك جنبرت، فقد عرفته أكثر مما يعرفه غيري، خالطته في وزارة المعارف بضعة أشهر كان في خلالها لا يكتم عني أمراً من الأمور.

اشترك سليم بك جنبرت في اسوأ وزارة وأشأمها، ولكنه كان كالضياء الساطع في الظلام الحالك، كان إلى جنبه وزير صاحب

عمامة ولكنني لست أدري هل كانت هذه العمامة برجاً من الهدى أم من غيره، وكان إلى جنبه وزير عجوز ولكنني لست أدري هل كانت شيبته شيبة الحمد، وكان إلى جنبه وزير صاحب المعاهدة المشؤمة، عرفه أحد النواب في المجلس تعريفاً لا مزيد عليه.

لم يستطع واحد من هؤلاء الوزراء أن يغلب على سليم بك جنبرت، فيرده عن طيب عنصره واستقامة مذهبه، فلم يؤثر فيه ضلال الضالين وفساد الفاسدين.

من ذاك اليوم عظمت منزلته في عيني ثم وقفت على سيرته وأخلاقه وعلى معاملته فازدادت هذه المنزلة عظمة، كان سليم بك جنبرت مولعاً بفعل الخير فإذا فعل الخير اطمأن باله يومه كله.

إنه على شيخوخته الجليلة كان لا يطيق أن يغلب عليه مستشار في أمر من الأمور فكثيراً ما خالف المستشار فيقول له: أنا الوزير وأنت المستشار ومعنى هذا أن كلمة الوزير فوق كل كلام وإذا ضايقه المستشار قطب في وجهه وقال له: إني أعلم بأحوال البلاد منك على أن الوزارة التي أشترك فيها كانت لا شيء إلى جنب المستشارين، وهذا ما يزيد في عظمة الرجل

قد تكون هذه الأمور بأجمعها يسيرة إذا قيست بأمر منقطع النظير وهو رد المعاهدة، فما ظهرت عظمة سليم جنبرت إلا في رده تلك المعاهدة المشؤمة.

الناس كلهم يعرفون أنه ردها ولكنهم لا يعرفون حالته النفسية في تلك الأيام.

إن سليم جنبرت نصراني كاثوليكي ورع محب لفرنسا، لا يعرف الهوادة في نصرانيته وفي محبته للفرنسيين وهذا ما زاد في تعظيمه في عيني يوم رد المعاهدة، ولما شعر الفرنسيون بتردده في التوقيع في المعاهدة، استعانوا عليه بأكبر مقام ديني لما يعرفون من تقواه ومن انقياده إلى رجال الدين، فلم تنفع فيه وساطة أحد، ولما قطع الفرنسيون أملهم من ناحية المقامات الدينية جاءه المندوب بنفسه ولاطفه وجامله وكان يقول له: ألك خدمة نخدمها، ألك أمر ننفذه، فكان سليم بك يقول له: لا، إني رجل قد تعبت!

هكذا كان موقف سليم بك جنبرت، كان يقول لي: إني أعيش في بلاد أكثر أهلها مسلمون، فأنا محل محبتهم، ومنزل مودتهم، فلا أريد أن تكون محبتهم لأهل بيتي بعد موتي أقل من محبتهم لي، لا أريد أن يمر ولدي في حلب وهو غاض الطرف طام الرأس، ومن إفراطه في محبة ولده استشاره في أمر المعاهدة فقال له:

ردها ولا تندم إننا لا نريد أن نجلب لنا عداوة البلاد.

ولكن سليم بك جنبرت لا يسكته إلا إطمئنان الضمير، فإذا مات هذا الضمير في غيره، فإنه فيه خالد لا يموت. ذهب ذات صباح إلى الكنيسة وسجد لله تعالى وقال بينه وبين ربه: يا رب! إني مقدم على عمل، فإذا كان خيراً فخذ بيدي فيه، وإذا كان شراً فجنبني إياه، ولكن العمل كان خيراً كل الخير فخرج من الكنيسة وملء قلبه الإيمان والطمأنينة فقال لي:

الآن عزمت فتوكلت فاكتب لي كتاب الإستقالة.

حاولت أن أكتب له في الكتاب أسباب استقالته فمنعني عن ذلك وقال: إنني لا أحب الشهرة ولا أميل إلى الضجة فاكتب أني تعب في حاجة إلى الراحة ثم كان من أمره ما كان.

كان رد سليم بك جنبرت للمعاهدة مقدمة للقضاء عليها في مجلس النواب، فإن معاهدة يردها وزير نصراني كاثوليكي ورع محب لفرنسة لا يجرأ مجلس أكثر رجاله مسلمون على الرضى بها والموافقة عليها، فإذا ردت المعاهدة المشؤمة في مجلس النواب فلا يخلو سليم بك جنبرت من أثر بليغ في ردها.

لا أظن أن وزيراً آخر من طرازه يقف موقفه هذا وخاصة إن كان في وزارة مثل الوزارة التي اشترك فيها، أفيكون جزاء سليم بك جنبرت بعد هذا كله أن يزاحموه على النيابة ويحرموه شرفها.

إذا كان هذا الأمر جداً ولم يكن هزلاً فلا أدري كيف تكون فاتحة عهدنا الوطني الجديد ولا أدري كيف تكون قلوب الناس بعد هذه الفاتحة، إننا إذا لم نشرع من اليوم في مكافأة المحسن على إحسانه ومعاقبة المسيء على إساءته، انقطع الإحسان في الدولة وشاعت الإساءة، وبانقطاع الإحسان تنقطع الفضيلة، وبشيوع الإساءة تشيع الرذيلة.

إن امارتكم بكر فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها، أما هذه الحلاوة فهي مكافأة المخلص على إخلاصه حتى يتم بنيان

وطننا الجديد على أيدي المخلصين، وأما هذه المرارة فإنها السكوت عن جنايات الماضي ووضع المحسن والمسيء في درجة واحدة وحينئذ لا أدري كيف تكون عواقب هذه السياسة.

محاورة في مقامات
اللصوص السارقون وأوصافهم

من أحاديث الأستاذ الكبير شفيق بك جبري في حلقته المحشوكة بالعباسية قال:

حدثني أحد الظرفاء قال:

بعد أن روي بعض الأشخاص السياسية وشبع، وأحس بمجيء أجله فيها فامتقع وسوست له نفسه أن يلهو بشيء يفرج به غمه، ويكشف كربه، فلم يجد أصلح له من التفقه في اللغة، والسبب في تفضيله اللغة على غيرها أن له عدواً مبيناً، ولم يستطع في ماضيه أن يزاحمه في ميدان الخطابة فأحب أن يعكف على اللغة حتى يستعد لعدوه في المستقبل البعيد جداً فأخذ في هذا الأمر رأي أحد أصدقائه وسأله أن يدله على كتاب يمكنه من التبحر في دقائق اللغة وجلائلها فأشار عليه بأن يطالع فقه اللغة وسر العربية للإمام الثعالبي، فاقتنى نسخة منه وبادر إلى النظر فيها وأول ما عرض له من هذا الكتاب فصل اختلج كل بدنه منه لشدة بغضه لما يشتمل عليه وعنوانه:

فصل في تفصيل أحوال السارق وأوصافه وأول هذا الفصل:

إذا كان السارق يسرق المتاع من الإحراز فهو سارق، فإذا كان يقطع على القوافل فهو لص وقرضوب.

فإذا كان يسرق الإبل فهو خارب

فإذا كان يسرق الغنم فهو أحمص إلى آخر أحوال السارقين وأوصافهم.

فقرأ الفصل كله حتى أتى عليه فرسخ في ذهنه من أول مرة لفرط كرهه للسارقين وأوصافهم فحفظ ثلاث عشرة صفحة وطرب منها وشهق وزهق ثم ذهب إلى صديقه وقال له:

لقد برزت عليك في فقه اللغة وسر العربية، فهل تعرف من أحوال السارقين وأوصافهم أكثر مما أعرف؟ إني أعرف ثلاث عشرة صفة فاذكر لي ثلاث صفات إذا كنت أعلم مني بهذا الباب.!

فضحك صديقه وقال له: إنك لا تزال تلميذاً في هذه الخصائص وقد أرشدتك إلى فقه اللغة لأنك مبتدئ وأين المبتدئ من المنتهي، فيسرت لك الأمر ولم أصعبه، إنك لم تقرأ مقامات البديع الهمذان؛ فإذا كنت تعرف ثلاث عشرة صفة للسارقين فإني أعرف اثنتين وسبعين صفة، فبهت من هذا الكلام لأنه كان يعتقد أنه قد أصبح أعلم أهل الأرض بهذه الصفات فأحب أن يمتحن صديقه فقال له اذكر لي شيئاً من مقامات البديع.

فقال حرسه الله وأبقاه وهو يحفظ المقامة الرصافية كلها.

أتعرف أصحاب الفصوص من اللصوص!

وأهل الكف والقف ومن يعمل بألطف ومن يحتال في الصف ومن يخنق بالدف ومن يكمن بالرف لينهال على اللف.

أم تعرف من يبدل بالمسح ومن يأخذ بالمزح، ومن يسرق بالنصح ومن يدعو إلى الصلح؟

أم تعرف من نوم بالبنج أو احتال بنيرنج؟..

أم تعرف أصحاب الطربزين كأعوان الدواوين ومن دب بأنين على رسم المجانين إلى آخر المقال.

وأخذ يفسر له أصحاب كل صفة على حده، فأهل القف الذين يختلسون المال بين أصابعهم، وأهل الصف الذين يسرقون من صفوف المصلين منتهزين انشغالهم في الصلاة وهلم جرا.

فلما فرغ من هذا التفسير اقر ــ بالتقصير وحلف أن يدرس صفات كل لص حتى لا يفوته أقل نص في صنعه البلص، وإنهما لكذلك اذ دخل عليهما عابر سبيل فجأة فقصا عليه قصتهما فقال لهما:

بارك الله. بارك الله.. كل منكما فارس هذا الميدان.

يا رحيم يا رحمان...

تسأل ونجيب

- ما هـو السبب في ركـود الحركـة الأدبيـة في سـوريا؟
- ما هي العوامـل الـتي ترونهـا كفيلـة بتنشيط هـذه الحركـة؟
- ما هــي النصـائح الـتي توجهونهـا للأدبـاء الناشـئين؟

ج ١

ومـن قـال لـك أن الحيـاة الأدبيـة في سـورية راكـدة! أفـلا تقـرأ هـذه المقـالات وهـذه القصـائد الـتي تنشـر في الجرائـد والمجـلات، أَفـلا تطلـع على هـذه المبـاحث الأدبية المختلفـة: الرمزيـة.. الوجوديـة.. فـإذا قابلنـا بين نشـاط هـذه الحركـة في أيامنـا وبين نشـاطها مـن ثلاثـين سـنة وجدنـا فرقـاً عظيمـاً فكـل شاب يخطر على بالـه الشـعر يقـذف بـه وكـل شـاب يعـرض لـه أَمر في الحيـاة يصبـه في قصـة، فمـا أكـثر القصـائد ومـا أَكـثر القصص ومـا أَكثر المقـالات!

فنحـن لا نشـكو ركـود الحركــة الأدبيـة ولكنّـا نشـكو هيجانهـا، إنّـا لا نشـكو قلتهـا ولكنَّـا نشــكو كثرتهـا ولكـن هـذه الحركـة في هيجانهـا وفي كثرتهـا لا نظـام لهـا ولا غايـة، هـذا مـا نشــكوه إلى أَيــن يذهــب

أدبنا، لا ندري، ما هي غايته لا ندري، إنه لا يزال فوضى، مرَّة نأخذ أفكارنا عن الفرنسيين، ومرة عن الإنكليز وحيناً عن الألمان وحيناً عن الروس وربما لجأنا إلى الأميركان، لا بأس بهذه الاقتباسات كلها، ولكن ما فائدتها إذا لم نطبع أدبنا بطابع خاص، ما هو لوننا، ما هي غايتنا، ما هو مذهبنا ما هو مزاجنا، ما هو اتجاهنا في الحياة، هذا ما لا يزال غامضاً في أدبنا، إننا لا نزال كريشة في مهبِّ الريح!.

ج٢

إنك تسألني عن العوامل التي تنشط الحركة الأدبية في بلادنا.

نسأَل القراء ونقول لهم لماذا لا تقرأون،

فيقولون لنا: وما هي كتبنا التي هي جديرة بالقراءة، ونسأَل الكتاب ونقول لهم: لماذا لا تكتبون، فيقولون لنا: وأين القراء الذين يطالعون ما نكتبه لهم! فنحن حائرون بين جمود القراء وبين جمود الكتَّاب. فمن الذي بيده الحق.

قديماً كان أدبنا يعيش في ظلال العمال والأمراء والملوك والخلفاء، فكان أكثر الأُدباء ينتجون ولا يشغلون أَفكارهم بمتاعب الحياة، أمَّا الآن فقد اختلف الأمر، فإن تكاليف الحياة أَصبحت ثقيلة فلا بدَّ للأَديب من مورد رزق له ثابت.

وإذا كان الأديب في أوربة أَو أميركة يستطيع أن يعيش بأَدبه وأَن يصبح غنياً فإن الأَديب في بلادنا لا يقدر أَن يقتصر على

الأدب وحـده، وليس عندنـا دور نشـر تسـاعد علـى ترويـج الأدب فتشتري تـأليف الكـاتب بأثمـان مقبولـة، فقـد يكتـب أحدنـا كتابـاً أو يدوِّن خواطر رحلةٍ فلا يجد من يشـتري آثـاره حتـى يفكـر في تـأليف جديد أو في رحلـة جديـدة.

الأدب يأخذ عن الحيـاة ويعطيهـا فمـرَّة توجهـه الحيـاة ومـرَّة يوجّـه الحياة، ولكنـه سواء أكـان تأثـيره في الحيـاة أم كـان تأثـير الحيـاة فيـه لا بـدَّ لـه مـن دور نشـر غنيـة مسـتقيمة، ولسـت أدري لمـاذا تؤلـف شـركات خماسـية لكـل صنـف، ولا تؤلـف شـركات رباعيـة أو ثلاثيـة للأدب!

فإذا لم يجد الأديب من يروِّج لـه بضاعتـه فإنهـا إلى الخمـول أميـل، أمَّا قولنا: من فضلك اكتب لنا مقالة، مـن فضلـك هـيء لنـا قصيـدة لعدد ممتاز والأجر والثواب على الله! فهذا يبعـد الأُدبـاء عـن التـأليف البارع ويساعد على ترويج التأليف غـير البـارع!

فـانظر الآن لقـد شـغلتني بسـوآلاتك سـاعة فـأضعت وقـتي فمـاذا الـذي جنيتـه أنـا مـن هـذه السـؤآلات والجوابـات! فثـق بـأني لا أعـود بعـد الآن إلى ضيـاع وقـتي بمثـل هـذه السـؤالات وبمثـل هـذه الجوابـات!.

ج ٣

اعفـني مـن النصـائح، فـإن أسـاتذة الأدب في القديـم والحديـث مـلأوا الدنيـا نصـائح فمـا علـى الأدبـاء الناشـئين إلاَّ الرجـوع إلى

إرشاداتهم، الأدب، سواء أكان نثراً أم كان شعراً إنه ابن الصبر الطويل، ولا بدَّ للكاتب أو للشاعر من الاشتغال عشرين سنة حتى يكون شيئاً في عالم الأدب، أمَّا هؤلاء الذين يسرعون في نشر خواطرهم دون أن يكون لهم زاد أدبي مخمَّر فهم السبب في كساد الأدب، لم يكتب أحدنا إلاَّ بعد أن قلَّب نظره في مؤلفات المتقدمين والمحدثين ربع قرن أو أكثر لأن سبك العبارة ليس بالشيء السهل.

هذه نصائحي!